العقل عند الإمام الغزالي

الأستاذ الدكتور
عبد العظيم الديب
أستاذ ورئيس قسم الفقه والأصول

يناقش هذا البحث تلك الهجمة المريبة على حجة الإسلام الغزالي ، واتهامه ، بأنه صاحب الفكر الذي أدى إلى ضياع الحضارة الإسلامية وانتكاسها .

[الإمام أبو حامد الغزالي ، أحد أعلام هذه الدنيا ، وأحد أعمدة الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي ، وأحد المجددين الذين ابتعثهم الله سبحانه ـ تحقيقاً لوعد رسولنا صلى الله عليه وسلم[1] ـ ليجددوا لهذه الأمة دينها . لاشك في كل ذلك . ومن هنا كثرت الدراسات ، وتعددت البحوث التي تناولته ، وتباينت الآراء حوله . ولما كان معروفاً ـ رضي الله عنه ـ بدعوته إلى تطهير القلب ، وتزكية النفس ، والتوجه إلى الله جل وعلا بقلبٍ مقطوعٍ عن علائق الدنيا ، ونفسٍ مطهرة مصفاة عن كل شهواتها وحظوظها ـ لما كان ذلك وقع البعض في خطأ أو وهم ، واتهموا أبا حامد ، بأنه انتهى إلى عداوته للعقل ، وبالتالي للجد والنشاط ، والكفاح ، والابتكار والاختراع . ويحاول هذا البحث أن يضع هذه القضية في نصابها ، ويجلو وجه الحق فيها ، والله الموفق للصواب] .

---

(١) أخرج أبو داود في الملاحم ، والحاكم في الفتن وصححه ، والبيهقي في كتاب المعرفة ، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة ، من يجدد لها دينها » والمتفق عليه أن حجة الإسلام الغزالي هو مجدد المائة الخامسة .

تهمـــــةٌ ولا دليـــــل :

لقد اتهم الغزالي بأنه عدُوّ العقل ، وعدو الفكر الحر ، وبأنه استطاع بحملته الجرئية ، ومقدرته البارعة ، أن يُسقط العقل من عليائه وأن يزيله من سمائه ، وأن يحط من شأنه ، ويُخرس من صوته ، وبالتالي كبَت الفكرَ الحر ، وفزّعه ، وأصابه بالذعر ، والهلع ، حتى اختفى من حياة الأمة الإسلامية ، أو كاد ، ولم يعد يتراءى إلا على استحياء .

وبعصر الغزالي ، أو بالتحديد بانتصار منهج الغزالي ، ومدرسة الغزالي ، وفكر الغزالي ، اتجهت الحضارة الإسلامية إلى الانحدار ، ثم الانهيار ، فيُحمِّلون الغزالي كلَّ ما أصاب الأمةَ الإسلامية من تخلف ، وجمود وضعف .

وذلك ـ في رأيهم ـ لأن دعوة الغزالي إلى التصوف ، والزهد في هذه الحياة الدنيا ، وانسحابه من ميدان المصاولة والمطاولة ، والتأليف والمناظرة إلى الخلوة والتأمل ، ثم إعلانه عدمَ ثقته بوسائل المعرفة ، وشكه فيما أقيم عليها من علوم ومعارف ، واعتماده (الكشف والمشاهدة) وسيلةً للعلم والمعرفة ، كل ذلك كان تهوينا من شأن العقل ، وقضاءً على مكانته ومكانه .

وكذلك أيضاً كانت حملته على الفلسفة والفلاسفة ـ وهم أصحاب الفكر الحر ـ قضاءً على التفكير والمفكرين ، وإرهابا لكل صاحب رأي ، ووأدا لكل نظر ، وبصر ، كذا قالوا .

ومن عجب أنهم قالوا هذا باسم البحث والعلم ، قالوه باسم سلطان الأكاديمية ، وطيلسان المنهجية ، ورداء الجامعية ، وشارة الأستاذية .

وإنه لمن المفيد جدا أن نبحث عن أصول الأفكار وجذورها ، وقد حاولت أن أتتبع صاحب هذه الفكرة (الأول) : أول من قال بهذه التهمة ، وألصقها بإمامنا حجة الإسلام ، حتى شاعت وأصبحت مقولة شبه بدهية لدى طائفة من كتاب عصرنا ، بل لدى مدرسةٍ كاملة متميزة ممن يحملون رايات الإصلاح ويطبّون لأمتنا ، تشخيصا لدائها ، ووصفا لدوائها .

حاولت ذلك : الوصول إلى أول من ألقى هذه التهمة في وجه الغزالي ـ فلم أصل بعد . ومع ذلك فما وصلتُ إليه قد يكون له مدلول .

* * *

كتب د. أنطونيوس كرم ، كتاباً بعنوان :

(العـــرب أمام تحـديـات التكنولوجيـا)[1]

عقد فيه فصلا بعنوان (تأملات في أسباب التخلف العربي)[2] انتهى فيه إلى « أن غياب الفكر المبدع المتجدد ـ الذي هو ركيزة أساسية للتطور الحضاري ـ يشكل جوهر التخلف الفكري ، وإذا كان الفكر المبدع هو أحد محركي الحضارة ، فإن (العقل المبدع) هو المحرك الوحيد للفكر المبدع الخلاق » . وراح يتساءل عن سرّ « الذبول المبكر للحضارة العربية وللفكر العربي ، بعد أن حققنا في فترة قصيرة جدا إنجازات رائعة ومدوية بكل المقاييس » .

ثم أجاب قائلاً : « إن الكثيرين من المحللين يرون أن انتصار المؤسسة السياسية والثقافية التي جسدها الإمام الغزالي أحسن تجسيد **هي التي أوقفت المدَّ الفكـري عند العـرب وشكلت ، منذ ذلك الحين سدا في وجه كل إصلاح** »[3].

وراح يبسط هذه الفكرة ، ويوضحها ، فقال : « ويرى الدكتور نقولا زيادة[4]، أن احتكاك الفلاسفة والمفكرين العرب بالفكر اليوناني أكسبهم الكثيرَ من المنطق وطرقَ المحاورة عند الفلاسفة اليونانيين ، فبدأ الفلاسفة العرب المتأثرون بالفكر اليوناني يأخذون على عاتقهم مهمةَ التوفيق بين الدين والعقل ، أو بين الشريعة والحكمة ، وبلغ هذا ذروته في محاولة ابن

---

(١) سلسلة (عالم المعرفة) شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت الكتاب رقم ٥٩ محرم ـ صفر ١٤٠٣ ـ نوفمبر ١٩٨٢ .

(٢) من ص ١٥٩ ـ ١٩٦ .

(٣) ص ١٦٨ .

(٤) الأبعاد التاريخية لأزمة التطور العربي ـ بحث ألقاه في ندوة (أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي) الكويت ٧ ـ ٢ ابريل ١٩٧٤ .

رشد في مرحلةٍ لاحقة ـ وهو أكثر الفلاسفة العرب الذين فهموا وتعمقوا بالفكر اليوناني ، وبالأخص بمنطق أرسطو ـ التوفيق بين العقل والإيمان ، وهكذا بدأت الخصومات الحادة بين الفقهاء والفلاسفة ، وبالأخص المتصوفين منهم (على أساس أن التصوف أساسا هو محاولة للوصول إلى الخالق ، وإلى الحكمة الإلهية دون المرور بالشريعة الإسلامية) .

وانتهت الخصومة بانتصار الفقهاء على الفلاسفة ، بانتصار الغزالي على ابن رشد الذي أُحرقت كتبُه . . . ومع نهاية المعركة بين الفقهاء والفلاسفة خمدت الحركة الفكرية والفلسفية العربية إلى أمد طويل »[1].

ويؤكد هذا المعنى أيضاً ، باستشهاد جديد ، فيقول : « ويرى الشاعر والكاتب العربي المعروف (أدونيس) أن انتصار الغزالي والمؤسسة الثقافية التي يُجسدها كان انتصارا للفكر التقليدي ، وهزيمةً للتجديد والإبداع ويستشهد أدونيس بقول الإمام الغزالي المشهور : « السلامة في الاتباع والخطر في البحث عن الأشياء ، والاستقلال ، ولا تكثر اللجج برأيك ومعقولك ، ودليلك وبرهانك ، وزعمك أنى أبحث عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه ، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس ، وما انكب عليه الناس ، فأكثره مبتدع ومحدثٌ ـ وأصبح ـ مازال الكلام لأدونيس ـ من يخترق ما شرعه الأسلاف أو أسسوه كأنه يقتل هؤلاء الأسلاف أنفسَهم ، وهكذا تأصّل التمسك بالماضي في الحياة العربية وزادت نزعةُ التعلق بالمعلوم ورفض المجهول ، بل والخوف منه »[2].

شـــنشـــنةٌ أعـــرفـــهـا من أخـــزم :

وفي محاولة منا للبحث عمن يكون قد سبق بإلقاء هذه التهمة في وجه الغزالي ، نظرتُ في كتب سلامة موسى[3] ، فوجدته فعلا قد سبق بها ، وسنتجاوز غمزَه ولمزه ، ومحاولتَه إثبات أن

---

(١) العرب أمام تحديات التكنولوجيا : ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) كاتب قبطي مصري توفى سنة ١٩٥٨م كان صاحب هدف وغاية ، تتولى دار المستقبل للنشر بالقاهرة والاسكندرية المملوكة لأولاده نشرَ مؤلفاته وإذاعتها ، تحت عنوان (تراثٌ من الكفاح الهادف) واقرأ عنه بعض إشارات في كتاب أستاذنا العلامة محمود شاكر « أباطيل وأسمار » فعندها تعرف طبيعته وما يدعو إليه .

الإسلام في حقيقته عدو للتفكير وللعقل وحرية الرأي ، ونكتفي بما يتصل بإمامنا الغزالي ، فقد استشهد ببعض أقوال الغزالي ، ثم جاد عليه بهذا التعقيب ، فقال : « وهذا كلام يقطر منه الإخلاص والنزاهة ، ومع ذلك لم يكن الغزالي وليا أبله يتمسح به الناس ويلبس المرقعات ، ويتواجد بالصيحات ، بل كان رجلاً مثقفا ذكياً درس المنطق والفلسفة ، وأكب على فهم الإنجيل والتوراة[1]، فهو إذا شرح الإسلام فإنما يشرحه على الوجه الذي يجب أن يُفهم عليه ، وهو إذا حكم بتكفير أحد من المسلمين ، فإنما يفعل ذلك مدفوعا بقوة إيمانه . وماذا كان أثر هذا العالِم المسلم في الشرق العربي ؟

كان أثره أنه قاوم الفلسفةَ حتى هدمها ، وكفَّر جميعَ من يدرسها ، وكان بعد ذلك أقوى أساس بُني عليه اضطهاد الفلاسفة والمفكرين ، حتى انتقلت الفلسفة من الشرق إلى الغرب ، أي إلى الأندلس ، وليس يمكنك أن تنقم شيئاً على الغزالي من هذه الوجهة ، سوى أنه كان ينظر نظرا دينيا ضيقا »[2].

ثم علّق على عباراتٍ أخرى نقلها عن الغزالي ، فقال : « ومن هذه القطعة يرى القارىء أن الغزالي يفهم ما يقول تمام الفهم ، ويحكم على من يخالفه في رأيه الديني بالزندقة ، ويجزم في حكمه ، والمسافة بين الحكم بالزندقة والحكم بالقتل قريبة جدا »[3].

ثم يتهكم بالغزالي ، فيقول : وقد عاش الغزالي بعد أرسطو بنحو ألف وأربعمائة سنة ، ومع ذلك لم يبخل عليه بالتفكير ، وعلى كل من اتبعه من فلاسفة المسلمين »[4].

ولم ينس أيضا أن يشبه بالغزالي بالقسيس البروتستانتي المتعصب (كالفن) الذي كان يحرق معارضيه بالنار[5].

---

(١) كذا .

(٢) حرية الفكر وأبطالها في التاريخ : ٩٤ ـ دار المستقبل بمصر (بدون تاريخ) .

(٣) المصدر السابق ص ٩٥ .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السابق ص : ١٧٢ .

وفي الحق أن سلامة موسى لا يعنينا في هذا الأمر كثيرا ، فهو ليس من أهل هذا الشأن ، ولكنا كنا نرجو أن يحيلنا على مصدره الذي استقى منه هذا الرأي في الإمام الغزالي ، ولكنه لم يفعل .

وممن قالوا بهذا الرأي ، واتهموا الإمام الغزالي بهذه التهمة المستشرق المتفرنس « محمد أركون » في بحثه الذي ألقاه أمام الملتقى الفكري الثامن عشر بمدينة الجزائر يوليو ١٩٨٤م حيث كان يتحدث عن تجديد التفكير الديني .

وقد أشار إلى شيوع هذه الفرية عن الإمام الغزالي ، الأستاذ الجليل الدكتور سليمان دنيا حين قال : « وقد غفل قوم في القديم والحديث ، وظنوا أن الغزالي يحمل على التفكير العقلي جملة ويكرهه ، ويحاربه ، ويريده ألا يكون . ومن هنا قالوا ما قالوا : من أن الغزالي قد ضرب الفلسفة ـ يعنون كلها ـ ضربة لم تقم لها بعدُ في الشرق قائمة .

ومن الغريب أنه حتى في عصرنا هذا ، بعدما تيسر طبع كثير من الكتب ، وتيسر تبعا لذلك الاطلاع على كثير من كتب الغزالي ، مازال بعض المنتسبين إلى العلم ، والواضعين أنفسَهم بين أهله في مقام الصدارة يجهلون هذه الحقيقة ، وقد يبلغ بهم الأمر أن يزعموا أن الإسلام ـ فضلا عن الغزالي يكره الفلسفة ويحاربها»[1] .

وكذلك يؤكد شيوعَ هذه الفكرة الخاطئة عن الغزالي ، أستاذنا الدكتور محمود قاسم[2]، فيقول : « من المشهور أن الغزالي قد فضل التصوف على العقل ، بل يقال إنه حفَّر العقل ، وغضّ من شأنه »[3] .

ثم يؤكد أنه تتبع كتب الغزالي ، فانتهى إلى عكس هذا القول وثبت لديه أن الغزالي يمجد العقل ، ويثق به ويجعله ميزانَ الحق . ولكنه لم يُشر ـ مثل سيمان دنيا ـ إلى أصحاب هذه

---

(١) سليمان دنيا ، مقدمة تهافت التهافت ، ١٨/١ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠م .

(٢) أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة والعميد الأسبق لكلية دار العلوم ، وأحد الأعلام في مجال الفلسفة الإسلامية رحمه الله .

(٣) محمود قاسم ، دراسات في الفلسفة الإسلامية : ١٤٧ ـ دار المعارف القاهرة ١٩٦٧م .

التهمة ، وإلى من ابتدع هذه الفرية ، ولا من يرددها ، وعذرهما في ذلك هو « الشيوع » و « الاشتهار » فكم من آراه تشيع وتنتشر ، وتتناقلها الأقلام ، وتتداولها الألسنة ، وتتعاورها الصحف والمجلات ، وتتبادلها الكتب والمراجع ، حتى تصير باللجاجة والإلحاح حقائق ، وثوابت ونظريات ، وبمعنى أصح يتخيل المتخيلون أنها حقائق ونظريات فلا يُسأل عن مصدرها ، ولا عن أهلها ، وإذا كان التتبع في قضيتنا هذه قد أرانا (سلامة موسى) ، ثم (نقولا زيادة) ، ثم (أدونيس) ، ثم (أنطونيوس كرم) ثم (أركون) فهل يكون لهذه الأسماء مدلول ، ولهذا التسلسل مغزى ؟؟

وبالقطع ليست هذه بداية السلسلة ، وقد لا تكون هذه الحلقات متتابعة أو متتالية ، ويبقى على الباحث أن يبذل جهدَه ووسعه ، حتى يعرف من أين نشأ هذا القول ، ومن أين بدأ هذا الاتهام لأبي حامد ، وذلك إرضاء للحقيقة ، قبل أن يكون إنصافا للغزالي ، وكأني على يقين أن وراء هذا فكر مشبوه ، وأقلام مسمومة . وندع هذا إلى حين يتم البحث والكشف عن أصول هذه الفكرة أو الفرية وجذورها (وما أكثر ما في ثقافتنا من قضايا زائفة تحتاج إلى البحث عن أصولها وجذورها !!) .

ومن العجيب أن ابن رشد الذي تصدى للغزالي ، بالرد والنقض والهجوم ، كان أصدق رأيا ، وأدقَّ فهما لموقف الغزالي من باحثي عصرنا و « دكاترة زماننا » ، فلم يتهم الغزالي بما اتهموه به ، وكان دقيقا غاية الدقة مدركا غاية الإدراك ، « فلم يشأ أن يسمي كتابه ـ الذي رد به على الغزالي ـ تهافت الغزالي ، وإنما سماه « تهافت التهافت » ليؤكد حصرَ الخصومة والخلاف ، في خصوص القضايا التي خاصم فيها الغزالي الفلاسفة في كتابه « تهافت الفلاسفة » [1].

● ● ●

(١) سليمان دنيا ـ مقدمة تهافت التهافت ـ ١٨/١ ، بتصرف ، مرجع سابق .

وخلاصة ما اتهم به الغزالي ، على ألسنة هؤلاء وغيرهم هو : أنه ضد العقل :

— فهو ضد العقل حين هدم الفلسفة وأذل كبرياءها .
— وهو ضد العقل المبدع حين كفّر الفلاسفة .
— وهو ضد العقل حين تصوف ودعا إلى المكاشفة والمشاهدة .
— وهو ضد العقل حين انسحب من المجتمع وترك رئاسة (النظامية) ونشْرَ العلم والتدريسَ والمناظرة .
— وهو بهذا كله كان سبب تأخر العالم الإسلامي وانحطاطه .

وسنحاول في الصفحات التالية أن نوجز الحديث عن أبرز هذه النواحي لنرى كم تجنى هؤلاء (المتوسمون بالعلم) على الحقيقة ، وعلى المنهج وعلى البحث العلمي ، وعلى الأكاديمية التي يتشدقون بها قبل أن يتجنّوا على حجة الإسلام الغزالي .

الغـزالي والفلسـفة والفلاسـفة

مـاذا نعـني بالفلسـفة ؟

إن كانت الفلسفة عملاً فكرياً ، ومحاولاتٍ عقلية يراد بها الاهتداء إلى الصواب والوصول إلى الحق ، فأعمال الغزالي كلها ممارساتٍ فكرية ، ومحاولات عقلية ، بحثا عن الحق والصواب .

فإن كان ابنُ سينا والفارابي ومن نحا نحوهما ، قد سلكوا مسلكا عقلياً صرفاً فيما اهتدَوْا إليه واعتقدوه رأيا لهم ، فإن الغزالي قد سلك مسلكا عقليا صرفا فيما ذهب إليه من تزييف هذه الآراء ، وهدم تلك الأفكار[1] .

---

(١) راجع في هذا المعنى : سليمان دنيا : مقدمة كتاب تهافت الفلاسفة : ٥ ـ ١٢ .

فالغزالي إذاً فيلسوف في هدمه لهذه الفلسفة .

وعلى ذلك يكون إطلاق اسم الفلسفة على ما ذهب إليه ابنُ سينا والفارابي ومن نحا نحوهما ، دون ما أتى به الغزالي وغيرُه ـ تحكما لا معنى له ، ولا سند له من عقل ، أو اصطلاح .

اللهم إلا إذا كان منظورا عند هذا التخصيص إلى مصدر الآراء التي جاء بها ابنُ سينا والفارابي من فلاسفة اليونان ، أي أن الفلسفة ، هي ما استعاره المفكرون المسلمون من أرسطاطاليس وأفلاطون ، وحاولوا التلفيق بينها وبين الإسلام ، أو تطويع الإسلام لها .

إن كانت الفلسفة بهذا المعنى الضيق ، فقد هدمها الغزالي ، وحق له أن يهدمها ، فهي بهذا المعنى علمُ الأصنام عند اليونان ، على حد تعبير المفكر الإسلامي ـ علامة الهند أبو الحسن الندْوي ـ مد الله في عمره .

ثم إن الغزالي في هدمه للفلسفة بهذا المعنى أكثر (عقلانية) من ابن سينا والفارابي ، فهو ضد التقليد ، تقليد أرسطاطاليس وأفلاطون ، ضد نقل الأفكار والتعبد لها مهما كان أصحابها ، ومهما كانت أسماؤهم .

بل هو يفسر قبولَ ابنِ سينا والفارابي لهذه الآراء الوافدة ، والأفكار الغربية بانبهارهم بأسماءَ طنانة ، وألفاظٍ رنانة ، وهذا قوله في مقدمة التهافت :

« وإنما مصدر كفرهم سماعُهم أسماءَ هائلة : كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم ، وإطناب طوائف من متبعيهم وضُلّالهم في وصف عقولهم ، وحسن أصولهم ، ودقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية ، واستبدادهم ـ لفرط الذكاء والفطنة ـ باستخراج تلك الأمور الخفية ، وحكايتهم عنهم أنهم ـ مع رزانة عقولهم ، وغزارة فضلهم ـ منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة ، وحيل مزخرفة .

فلما قرع ذلك سمعَهم ، ووافق ما حُكى من عقائدهم طبعَهم ، تجملوا باعتقاد الكفر ، تحيزا إلى غُمار الفضلاء بزعمهم ، وانخراطا في سلكهم ، وترفعا عن مسايرة الجماهير والدهماء ، واستنكافا من القناعة بأديان الآباء ، ظنا بأن إظهار التكايس في النزوع عن تقليد الحق ، بالشروع في تقليد الباطل جمال ، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليدٍ عن تقليدٍ خُرق وخبال ، فأية رتبة في عالم الله أخس من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقَد تقليدا ، بالتسارع إلى قبول الباطل تصديقا ، دون أن يقبله خبرا وتحقيقا ؟؟!! ، والبله من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة ، فليس في سجيتهم حُب التكايس بالتشبه بذوي الضلالات ، فالبلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانةٍ بتراء ، والعمى أقرب إلى السلامة من بصيرة حولاء »[1] .

فهو إذًا ضد التقليد داعٍ إلى استخدام العقل والفكر ، وعدم قبول الآراء مهما كان أصحابها .

وقد أشار إلى هذا المعنى أستاذنا الدكتور / محمود قاسم حين قال[2] :

« أما الفلاسفة الذين يظن أنه يعتمدون على الأدلة العقلية ، وعلى المعرفة اليقينية في تقرير معتقداتهم ، وفي محاولة التوفيق بين آرائهم والدين ، والذين يخيل إليهم أنهم أنصار العقل ، وأبعد الناس عن التقليد ـ نقول : إن هؤلاء لا يبرؤون في نظر الغزالي ، من الركون إلى منهج التقليد . ودليل ذلك ما أخذه فلاسفة الإسلام ، تقليدا عن فلاسفة اليونان ، وما مزجوا به آراءهم من معتقدات باطلة لا تتفق وروح دينهم » .

ومن هنا كان الغزالي على حق ، حين عبر عن شعوره ، نحو الفلاسفة بهذا المعني الضيق ـ بالازدراء[3] ، إذ رآها ادعاءً وانتحالا لآراء الأقدمين .

---

(١) مقدمة التهافت : ٦٠ .

(٢) دراسات في الفلسفة الإسلامية : ١٨٦ ـ دار المعارف ـ القاهرة : ١٩٦٧ م .

(٣) المنقذ من الضلال) ٨٧ . مرجع سابق .

فما هدمه الغزالي ليس الفلسفة الإسلامية ، ذلك أن مفكري الإسلام الممثلين لروح الإسلام ، لم يقبلوا الفلسفة الأرسططاليسية ، ولا المنطق الأرسططاليسي ، « ونحن نتنكب الصواب إذا قلنا : إن ابنَ سينا يمثل الإسلام ولا يمثله الغزالي . لم يكن ابن سينا مفكرا مسلما على الإطلاق ، ولم يمثل الحضارة الإسلامية أدنى تمثيل . ولا يَتصور عاقلٌ أن يكون « الشفاء » ممثلا لفكرة إسلامية وروح إسلامي ، بينما يمثل « تهافت الفلاسفة » للغزالي روح الإسلام الحقيقي .

ولعلّ ابنَ رشد تنبه إلى هذا . فكتب (مناهج الأدلة) في صورة إسلامية بينما كانت شروحه لكتب أرسطو وكتابه (تهافت التهافت) خروجا على الفكر الإسلامي ومتابعةً لروح يوناني لفظَه الإسلام لفظا تاما[1] ».

فهو إذاً هدم الآراء المجلوبة ، أي هدم (التقليد) ولم يهدم الفكر ، ولم يهدم الفلسفة . فهو قد وضع لنفسه دستورا لم يحد عنه قيد شعرة ، وهو « معرفة الرجال بالحق ، لا معرفة الحق بالرجال » ولذا كان يوصى من يطلع على الفلسفة أن يجتهد لنفسه ، وألا يعطل عقله تقليدا لأرسطو وأفلاطون .

وهذا الشعور بالازدراء نحو هؤلاء المتعالمين و (المتكايسين) هو الذي يفسر لنا ذلك الأسلوبَ اللاذع والنقدَ الساخر الذي نراه في كتابه (تهافت الفلاسفة) ، فمع أن الغزالي في هذا الكتاب فيلسوف عملاق ، نجده قد مزج بذلك الفكر الجاد سخريةً مرة من الفلاسفة ، تصل إلى حد (السباب) كما سماها الأستاذ الجليل سليمان دنيا[2] رحمه الله .

ويكفى مثالا على ما نقول ، ما يطالعك به الغزالي في مقدمة كتابه (تهافت الفلاسفة) من مثل قوله :

---

(١) د . علي سامي النشار . نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام : ١٦٧/١ .
(٢) في مقدمته لتهافت التهافت : ٢١ .

فلما رأيت هذا العرقَ من الحماقة نابضا على هؤلاء الأغبياء ، انتدبت لتحرير هذا الكتاب ، ردا على الفلاسفة القدماء ، مبينا تهافت عقيدتهم ، وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالإلهيات ، وكاشفا عن غوائل مذهبهم وعوراته التي هي - على التحقيق - مضاحك العقلاء ، وعبرةٌ عند الأذكياء ، أعني ما اختصوا به عن الجماهير والدهماء من فنون العقائد والآراء ، هذا مع حكاية مذهبهم على وجهه ، ليتبين هؤلاء الملاحدة تقليداً ، اتفاق كل مرموق من الأوائل والأواخر على الإيمان بالله واليوم الآخر[1]».

وما بالنا نذهب بعيدا وعنوان الكتاب نفسُه ينطق بما نريد أن نقوله . ولقد أخذ الدكتور سليمان دنيا على الغزالي مزجَه السخريةَ والسباب بالفكر والفلسفة ، قائلا : « إن السباب ليس فلسفة ، ولا يصلح أن يكون لونا من ألوانها ، حتى ولو على سبيل المجاز . ومع ذلك وقع فيه هذان الفيلسوفان »[2].

ولكن عذر الغزالي ، أنه جاء فوجد الفلسفة تُطل على المجتمع من علُ ، وتهاجم الإسلام ، وغاية ما يملكه علماء الكلام أن يردّوا التهم الموجهة إلى الإسلام ، ويبرروا موقفه ، ويلتمسوا العذر لعقائده ونظرياته ، وغاية ما يملكه الفقهاء أن يحرموا دراسةَ الفلسفة ، ويحذروا من الاطلاع عليها .

فكان على الغزالي أن يُنزل الفلسفةَ من عليائها ، بعدما أحاط هؤلاء أنفسهم بهالةٍ من التفخيم والتعظيم ، وصاغوا كلامهم عباراتٍ مبهمة مقفلة ، إيحاء بأنهم يعلمون ما لا يمكن أن يعلمه غيرهم ، ويستطيعون ما لا يمكن أن يستطيعه غيرهم ، فكان على الغزالي أن يكشف هذا الزيف ويعرّي هذا الكبرياء ، وكانت السخرية ، والازدراء ، بعضَ وسائله ، فهو ليس أكاديمياً بارداً ، وإنما هو داعية مجاهد ، يجيش قلبه بالعواطف ، ويتفجر فؤاده بالمشاعر ، ويشتعل وجدانه بالانفعال ، فأنى لمثله أن تخرج أفكاره في ثوبٍ رخامي

---

(١) مقدمة الغزالي لتهافت الفلاسفة : ٦١ .
(٢) مقدمة تهافت التهافت : ٢١ ويقصد الغزالي وابن رشد .

بارد ، إن الأفكار من مثله طعناتٌ في ميدان ، وطلقاتٌ في معركة ، ونيرانٌ في معمعة . فلماذا يؤخذ عليه أن يصوغ فكرَه في عبارةٍ حادة أو ساخرة ، ما دام صحيحَ الفكر ، صادقَ البرهان ، دقيقَ الاستدلال .

البحث يثبت صدقَ الغزالي :

يقول أستاذنا الدكتور / محمود قاسم[1]: « وفيما مضى كنا لا نخفي عجبنا من إلحاح الإمام الغزالي في تكفير أبي نصر الفارابي ، وابن سينا مع تسامحه وتساهله مع جميع المقلدين الآخرين ، مسلمين أو غير مسلمين ، لكن بدأت تخف حدة هذا العجب . ولم نعد نؤمن بأن الفارابي ، وابن سينا اجتهدوا في التوفيق بين الدين والفلسفة عن رغبةٍ مخلصة ، لا من أجل تقويض الدين في نفوس المؤمنين به ، وأنهما بعيدان عن منزلة دعاة الباطنية مثلا ، ممن خصهم الغزالي أيضاً بكثيرٍ من عنايته » .

بأسلحتهم حاربهم :

كان الغزالي أول من دخل على الفلاسفة بيتَهم ، وهدمه عليهم ، « ولم يتهور الغزالي في الهجوم على الفلسفة ، ولم يكن فيه مقلدا لغيره ولا ضيق التفكير ، إنه درس الفلسفة أولا . . . وكان يؤمن بأنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي أعلمَهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجتَه ، فجّد واجتهد في دراستها ، ومعرفة حقيقتها وأغوارها ، حتى اطلع على منتهى علومهم »[2].

ومن هنا جاء نقده للفلسفة نقدَ الخبير ببواطنها ، العليم بمواضع الخلل في مكامنها ، فزلزلها زلزالا .

يقول معاصره الإمام القاضي أبو بكر ابن العربي ، بعد أن ذكر أن محاولات علماء الإسلام للرد على الفلاسفة قبل الغزالي ، كانت بلغةٍ غيرِ لغتهم ، فلم يفهموها ، ونسبوا علماء

---

(١) دراسات في الفلسفة الإسلامية : ١٨٦ ـ ١٨٧ .
(٢) أبو الحسن الندوى : رجال الفكر والدعوة .

الإسلام إلى الجهل والعجز ، فلما جاء الغزالي « انتدب للرد عليهم بلغتهم ، ومكافحتهم بسلاحهم ، والنقض عليهم بأدلتهم ، فأجاد فيما أفاد ، وأبدع في ذلك ، كما أراد الله وأراد ، وبلغ في فضيحتهم المراد ، فأفسد قولَهم من قولهم ، وذبحهم بمداهم ، فكان من جيد ما أتاه ، وأحسن ما رواه ورآه فيما يختصون به دون مشاركة أهل البدع لهم كتابا سماه (تهافت الفلاسفة) ظهرت فيه مُنَّته ، ووضحت في درك المعارف مرتبته ، وأبدع في استخراج الأدلة من القرآن ، على رسم الترتيب في الوزن الذي شرطوه ، على قوانين خمسة بديعة في كتاب سماه (القسطاس)[1].

وإذا كان الغزالي « يذبحهم بمداهم ، ويصوب أسلحتهم إليهم » أليس ذلك فلسفة .

فكيف يقال : إنه هدم الفلسفة ؟؟ .

الفيلســـوف يهـــدم الفلســـفة :

كان الغزالي فيلسوفا وهو يحارب الفلاسفة ، نعم . فقد كان عمله هذا ، عملا عقلياً محضا ، وبحثا فكريا صرفا في سبيل الوصول إلى الحقيقة . وهذه هي الفلسفة .

وقديما زيف أرسطو نظرية المثل الأفلاطونية ، ولم يقل أحد : إن عمله هذا ليس فلسفيا ، على حين كان يهدم فلسفة أفلاطون ، فلماذا الغزالي وحده يقال : إنه ضد الفلسفة والفكر ؟ لقد نقض أرسطو نظريةً فلسفية لأفلاطون فقالوا فيلسوف ، ونقض الغزالي نظرية فلسفية ـ في الإلهيات فقط ـ فقالوا : ضد الفلسفة ، وضد الفكر ، وضد العقل .

فلمـــاذا ؟؟

إن « من ينظر إلى الغاية من كتاب التهافت ـ تلك التي يصورها الغزالي نفسه ، بأنها انتزاع الثقة من الفلسفة ـ ورآه لهذا ، بعيدا من نطاق الفلسفة ، فهو مضطر إلى اعتبار وسيلته ـ تلك التي تقوم على استعراض مناهج الفلاسفة وأدلتهم ، واستخدام العقل وحده

---

(١) القاضي أبو بكر بن العربي ـ آراء أبي بكر بن العربي الكلامية : ١٠٦ .

للكشف قن قصورها وعجزها ، وضعفها وركتها ـ عملا داخلا في صميم الفلسفة . إنه عمل يمكن تصويره بأنه بحث في طاقة العقل ، وهل يمكن أن يكون عملٌ كهذا بعيدا عن مجال الفلسفة ؟[1]».

فهو إذاً لم يقض على التفلسف والفلسفة ، بل قد ذهب البعض[2] « إلى أن الفضل الأكبر لوجود فلسفة القديس توما يعود إلى كتابات الغزالي ، لا إلى تأليف ابن رشد ، فقد هاجم حجةُ الإسلام الفلسفة ، فرد عليه الشارح ، واستفز مفكري الغرب ، فبادروا إلى الرد على الرد . . . . » .

ومن هنا صح لنا أن نقول : ليس صوابًا ما ذهب إليه بعضُ الدارسين والباحثين من أن الغزالي قد قضى نهائياًعلى الفلسفة في المشرق .

بل قضى على التقليد في الفلسفة ، إذ حوّل المقلدون العلوم العقلية ، الفلسفية إلى علوم نقلية .

أيـــة فلســـفةٍ هــدمـــها الغـــزالي ؟

في كل ما تكلمنا عن نقض الغزالي للفلسفة ، كنا نعني الفلسفة بالمعنى الضيق ، الذي أشرنا إليه آنفا ، وهو الآراء والأفكار المجلوبة من فلاسفة اليونان ، بل ليست كل هذه الآراء ، وإنما يعني ما كان منها في جانب الإلهيات فقط .

فقد نظر إلى علوم الفلاسفة نظرة الخبير ، وقسمها إلى ستة أقسام ، رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وسياسية ، واعترف صراحة أن القسم الكبير منها لا علاقة له بالدين نفيًا وإثباتا ، وإنما هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها[3].

---

(١) سليمان دنيا ـ مقدمة تهافت الفلاسفة : ١ .

(٢) الأب بولس مسعد . عن عبده الشمالي . دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية : ٥٥٤ ـ هامش رقم ١ .

(٣) راجع من كتب الغزالي : التهافت ٦٦٠ ، والمنقد : ١١٣ ، الإحياء : ٢٢/١ .

وقد وجه الغزالي سهامَ نقده إلى الذين يرفضون الفلسفة جملةً ، من غير فحص وتمحيص ، ورأى أن في هذا جنايةً على الدين ، من حيث أراد صاحبها الدفاعَ عنه ، وقد عبر عن ذلك في كتابه تهافت الفلاسفة قائلا : « وهذا الفن ـ إشارة إلى العلوم البرهانية ـ لسنا نخوض في إبطاله ، إذ لا يتعلق به غرض ، ومن ظن أن المناظرة في إبطال هذا من الدين ، فقد جنى على الدين ، وضعف أمره[1] ».

ثم يعلل لهذا الكلام تعليل الأريب الخبير ، فيقول : « فإنّ هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية ، لا يبقى معها ريبة ، فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها ، حتى يُخبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرهما ، ومدة بقائهما إلى الانجلاء ، إذا قيل له : إن هذا على خلاف الشرع ، لم يسترب فيه ، وإنما يسترِيب في الشرع ، وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه ، أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقه ، وهو كما قيل عدوّ عاقل ، خير من صديق جاهل »[2].

وبهذا يتضح لكل ذي بصر مدى التجاوز في قول القائلين : إن الغزالي حارب الفلسفة ، فهدم الفكر ، وكبت إبداع العقل .

الغـــزالي والعقـــل

فيما سبق ظهر لنا أن الغزالي كان دائما يشدّ يديه جميعاً على العقل ، ولم يتخل عن العقل لحظة فيما عدا تلك الفترة (المرضية) العنيفة ، التي أعضلت كما قال عنها ، واستمرت قرابة الشهرين ، ثم ـ بتعبيره ـ « شفاه الله منها ، وعادت الضرورات العقلية مقبولة »[3] فلسان حاله فيما كتب ، وفيما ناظر ، وفيما أيد ، وفيما عارض ـ يقول : لا وسيلة ، ولا ميزان ، ولا معيار ، ولا مقياس ، إلا العقل .

---

(١) تهافت الفلاسفة : ٦٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، وانظر أيضا المنقذ من الضلال : ١١٥ ، والإحياء ٢٢/١ .

(٣) المنقذ من الضلال : ٩٣ .

ولكنه لم يكتف بلسان الحال ، فقد أفرد العقلَ بحديث خاص ، بين فيه منزلته ، ومجّدَه ، وأعلى شأنَه ، وأثنى على أهل العقل الذين يؤمنون له ويعملون بمقتضاه ، وبين منزلته ومكانته من الشرع .

تمجـــيدٌ للعقـــل :

في أكثر من كتاب من كتب الغزالي ـ بعد الخلوة والعزلة ـ تجد ثناء وتمجيدا للعقل ، ويكفي أن نضعك أمام هذا النص من كتابه (المشكاة)[1].

« العقل أولى بأن يسمى نورا من العين الظاهرة لرفعة قدره عن النقائض السبع » .

أما الأولى : فهو أن العين لا تبصر نفسها والعقل يدرك غيره ويدرك نفسه ، ويدرك صفات نفسه .

الثانية : أن العين لا تبصر ما قرب منها قربا مفرطا ، ولا ما بعد .
والعقل عنده يستوي القريب والبعيد ويعرج في طرفةٍ إلى أعلى السموات رقيا ، وينزل في لحظة إلى تخوم الأرض هُوياً .

الثالثة : أن العين لا تدرك ما وراء الحجاب : والعقل يتصرف في العرش والكرسي ، وما وراء حجب السموات ، وفي الملأ الأعلى والملكوت ، كتصرفه في عالمه الخاص به ومملكته القريبة أعني بها الخاصة به ، بل الحقائق كلها لا تحجب عن العقل .

الرابعة : أن العين تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها بل قوالبها وصورها ، دون حقائقها ، والعقل يتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ، ويدرك حقائقها وأرواحها ، ويستنبط أسبابها وعللها وحكمها ، وأنها مم حدثت ، وكيف خُلقت ومن كم معنى جمع الشيء وركب ، وعلى أي مرتبة في الوجود نزل وما نسبته إلى سائر مخلوقاته ؟

---

(١) ص ٨ ـ ١١ بتصرف .

الخامسة : أن العين تبصر بعض الموجودات ، إذ تقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات ، ولا تدرك الأصوات ، ولا الروائح والعلوم .

والموجودات كلها مجال العقل ؛ إذ يدرك هذه الموجودات ، التي عددناها ، وما لم نعده وهو الأكثر ، فيتصرف في جميعها ويحكم عليها حكما يقينا صادقا ، فالأسرار الباطنة عنده ظاهرة ، والمعاني عنده جلية ، فمن أين للعين الباصرة مساواته في استحقاق اسم النور .

السادسة : أن العين لا تبصر ما لا نهاية له .

والعقل يدرك المعقولات ، والمعقولات لا تتصور أن تكون متناهية .

السابعة : أن العين تدرك الكبير صغيرا فترى الشمس في مقدار حجر ، والكواكب في صورة دنانير على بساطٍ أزرق ، والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة .

وأنواع غلط البصر كثيرة والعقل منزه عنها .

فأما العقل إذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال ، لم يتصور أن يغلط بل يرى الأشياء على ما هي عليه .

وإذا لم يكن هذا الذي قاله في (المشكاة) كافيا أو قلت : إن هناك من يشكك في نسبه (المشكاة) إليه ، فيكفي أن أضع أمامك ما قاله في الإحياء ، وهو بالقطع من تأليفه ، وهو بالقطع بعد العزلة والخلوة ، فقد عقد الباب السابع من الكتاب الأول ، من الربع الأول ، بعنوان (في العقل وشرفه ، وحقيقته ، وأقسامه) .

قال فيه عن شرف العقل :

« اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلفٍ في إظهاره ، ولاسيما وقد ظهر شرف العلم من قِبل العقل ، والعقل منبع العلم ، ومطلعُه وأساسُه ، والعلم يجري منه مجرى الثمرةِ من الشجرة ، والنورِ من الشمس ، والرؤية من العين ، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة ؟

أو كيف يُستراب فيه ، والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقلَ ، حتى أن أعظم البهائم بدنًا ، وأشدها ضراوة ، وأقواها سطوة ، إذا رأى صورة الإنسان احتشمه ، وهابه ، لشعوره باستيلائه عليه لما خُص به من إدراك الحيل[1] .

ثم أردف ذلك بأن (العلم) المستفاد من العقل « سماه الله روحا ، ووحيا ، وحياة ، فقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾ ـ الشورى ٥٢ ، وقال سبحانه : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشي به في الناس﴾ ـ الأنعام : ١١٢ . وحيث يذكر القرآن النور والظلمة ، أراد به العلم والجهل ، كقوله سبحانه ، ﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ ـ البقرة : ٢٥٧ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أول ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال له عز وجل : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم عليّ منك . بك آخذ ، وبك أعطي ، وبك أثيب ، وبك أعاقب »[2] .

وتابع الغزالي استشهاده على شرف العقل ومنزلته ، فحشد لذلك طائفة صالحة من الأحاديث النبوية الشريفة ، بلغت خمسة عشر حديثا ، ومع أنها لا تخلو من ضعيف ، أولا تسلم كلها ، فهذا الصنيع ينطق لا شك بتمجيد الغزالي للعقل ، بل ربما يكون ضعف هذه الأحاديث أكثر دلالة على احتفاء الغزالي بالعقل من صحتها . من حيث تشوّفه لإثبات ذلك بالشرع ، وتطلعه لجعل رفعة العقل وتعظيمه أمرا دينيا .

وكان من آخر ما كتب الغزالي كتابه (المستصفى) في أصول الفقه ، وجاء في مقدمته :

« فقد تناطق قاضي العقل ، وهو الحاكم الذي لا يُعزل ، وشاهد الشرع المزكّى المعدَّل . . . . . والعقل أشرف الأشياء ، لأنه مركب الديانة ، وحامل الأمانة ، إذ عرضت على الأرض والجبال والسماء ، فأشفقن من حملها ، وأبين أن يحملنها غاية الإباء »[3] .

---

(١) الإحياء : ٨٣/١

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المستصفى : ٣/١ .

فهكذا يجعل العقل (ملزما) (متبوعا) (مطاعا) . أليس هو القاضي ، وحكم القضاء نافذ ، أليس هو الحاكم ، وطاعة الحاكم واجبة ، وكان الغزالي دقيقا غاية الدقة حين وصفه بأنه (الحاكم الذي لا يعزل) . ثم هو شاهد الشرع المزكّى المعدل ، وهل ترد شهادة مثل هذا الشاهد .

ثم لفت نظرنا أيضا أن الغزالي ، وهو يعرض لأدلة الأحكام في (القطب الثاني) من المستصفى الذي جعله خاصا بها وتفصيلا لها ، قد عرضها هكذا .

القطب الثاني ، في أدلة الأحكام ، وهي أربعة :

١ ـ الكـتاب .
٢ ـ السـنة .
٣ ـ الإجمـاع .
٤ ـ دليل العقل . المقر على النفي الأصلي[١] .

وهو بهذا ينفرد عن كل من سبقه من الأئمة في عدِّه (العقلَ) رابع الأدلة ، وكذا عن كل من جاء بعده[٢] ـ فيما نعلم ـ

والغزالي بهذا الصنيع لم يخرج على إجماع المسلمين بأنه « لا حاكم إلا الله[٣] » ، وإنما يعني بعدِّ العقل أصلا رابعا أنه السبيل إلى إدراك « براءة العدم الأصلية » ولذا يشرح هذا الأصل قائلا : « اعلم أن الأحكام السمعية لا تدرك بالعقل ، لكن دل العقل على براءة الذمة عن الواجبات »[٤] .

ومع ذلك ، فلا يخلو صنيع الغزالي هذا من دلالة ، إذ يبقى له اهتمامه بأمر العقل ، ودوره ، ومجاله .

---

(١) المستصفى : ١/١٠٠ .
(٢) حاشا ابن قدامة في (روضة الناظر : ١٣٧) . ومن المعروف أن كتاب ابن قدامة هذا يكاد يكون مختصرا للمستصفى .
(٣) انظر في علاج هذه القضية بحثا بعنوان « العقل عند الأصوليين » لصاحب هذا البحث . دار الوفاء للطباعة والنشر ـ القاهرة . والمنصورة ـ ١٩٨٨م .
(٤) المستصفى : ١/٢١٧ .

وحين يتحدث عن الأخوة ، والإخاء ، وما يشترط في الصاحب الذي يؤاخى ، يجعل العقلَ أولَ هذه الشروط ، فيقول : « وعلى الجملة فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال ، أن يكون عاقلا ، حسن الخلق ، غير فاسق ، ولا مبتدع ، ولا حريص على الدنيا »[1].

هكذا يجعل العقل أول الشروط ، ثم يفصل هذا الإجمال ، فيقول : « أما العقل ، فهو رأس المال ، وهو الأصل ، فلا خير في صحبة الأحمق ، ..... كيف والأحمق يضرك »[2].

ومما يدل على أن تمجيد العقل إحدى الأفكار الراسخة ، والرئيسة في مذهب الغزالي ، أنه يحدد لنا مراتب التصديق الجازم أو الإيمان القاطع ، في كتابه المعروف ، « إلجام العوام عن علم الكلام » **فيجعل التصديق ، أو الإيمان عن طريق البراهين المنطقية أسمى مراتب الإيمان** . فالكلمة الأولى هي إذًا للتصديق الذي ينتهي إليه المرء عن طريق « البرهان المستوفي شروطه ، والمحرر أصوله ، ومقدماته درجة درجة ، وكلمة كلمة ، حتى لا يبقي مجالا لاحتمال الشك ، وذلك هو الغاية القصوى . وربما يتفق ذلك في كل عصر ، لواحد أو اثنين ، ممن ينتهي إلى تلك الرتبة وقد يخلو العصر عنه »أ. هـ[3]

وبعد هذا تكون قد وضحت حجة من جعل الغزالي من الفلاسفة العقليين . يقول الدكتور سليمان دنيا : « لو أردنا أن نلخص خلاصة رأيه في العلوم ومصادرها ، في كلمة موجزة ، لقلنا : **إنه من الطائفة المدعوة الآن بالعقليين** ؛ فإنه يقول : العلم هو اليقين العقلي المأخوذ إما من الحسيات ـ بعد فحص العقل لها ، وتفتيشه عن مآخذها ، هل هي مستوفية لشروط الإحساس الصحيح أو لا ، وإما من البديهيات ـ بعد فحص العقل لها ، هل سلمت من سلطة الأوهام أولا ، وإما من المتواترات ـ بعد تفتيش العقل واعتماده ، وإما من الوجدانيات ـ بعد الفحص العقلي ، وإما من التجريبيات ـ بعد الفحص العقلي ، وإما من القضايا الفطرية القياس ـ بعد الفحص العقلي .

---

(١) الإحياء : ١٧١/٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) د . محمود قاسم . دراسات في الفلسفة الإسلامية : ١٥٧ .

فكل ذلك لاثقة به إلا بعد تفتيش العقل وفحصه ، ثم إعطائه الحكم بأنه صحيح أو غير صحيح »[1].

هكذا العقل حاكم على كل مصادر العلم والمعرفة .

وقد يبدو الغزالي مفرطاً في ثقته بالعقل ، حيث يرى « أن العقل إذا تحرر من غشاوة الوهم والخيال ، لم يتصور أنه يخلط ، بل يرى الأشياء على ما هي عليه »[2].

ويعلق على هذا الدكتور محمود قاسم قائلا : « فهل يحق لنا أن نقرر أن هذا الفيلسوف من أكثر الناس حماسة للمذهب العقلي ، في حين أننا نرى أن أكثر الناس تطرفا في هذا المذهب ، يفسحون مجالا لاحتمال الخطأ ، ويعترفون بنسبية العلم وتطوره ، ويرون في هذه النسبية دليلا على حيوية العلم واتجاهه دائما نحو غاية يقترب منها باطراد ، دون أن يصل إليها أبدا»[3].

ولكنه يعود مستدركا ، لينفي عن الغزالي تهمة الإفراط في الثقة بالعقل ، ذلك أنه نفى عن العقل إمكان الغلط بشرطٍ هو السلامة عن الآفات ، والحجب والأوهام ، والغزالي يعترف بأن هذه الشروط لا يمكن أن تتحقق كاملة في أثناء هذه الحياة الدنيا ، إذ العقل محجوب - في نظره - لا عند العلماء فحسب ، بل لدى أهل التصوف أنفسهم.[4]

فهو إذًا يثق بالعقل ، ثقة (العقلانيين) من غير إفراط ولا تفريط .

تمجيد لمن يتبعون العقل :

بعد تمجيد الغزالي للعقل وبيان شرفه ومنزلته ، وسلطانه ، وفضله ، نجده يثني على من يتبعون العقل ، فيقول في أعظم كتابٍ ألفه ليناصر به مذهب الأشاعرة ، وهو (الاقتصاد في الاعتقاد) .

---

(١) سليمان دنيا : مقدمة معيار العلم : ٢٦ .

(٢) عن محمود قاسم - دراسات في الفلسفة الإسلامية : ١٤٩ .

(٣) المصدر السابق نسه

(٤) المصدر السابق نفسه : ١٥٠ بتصرف .

« وأما اتباع العقل الصرف ، فلا يقوى عليه إلا أولياء الله تعالى ، الذين أراهم الحق حقا ، وقواهم على اتباعه »[1].

هكذا أتباع العقل هم أولياء الله حقا .

الغـــزالـــي والتقلـــيد :

رأينا أن الغزالي كان في حملته على الفلسفة والفلاسفة ، لا يهاجم الفكر الحر ، ولا المنهج العلمي ، وإنما هاجم تقليد آراء فلاسفة اليونان ، والخضوع لها ، وعدم عرضها على معيار العقل ، وميزان الفكر ، وقد كان دائما ضد التقليد ، داعيا إلى نبذه واطراحه ، مناديا بضرورة البحث عن الحق ومعرفته بالحق ، لا بالرجال ، وقد كانت هذه القاعدة هي دستوره الذي لم يحد عنه لحظة في خاصة نفسه ، ويدعو غيره إليه ؛ فقد وهبه الله نفسا طُلعة تواقة إلى درك الحقائق ، متعطشة إلى كُنه الأمور ، فانحلت عنه رابطة التقليد ، وانكسرت عليه العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا[2].

وهو يدعو إلى إنزال المذاهب كلها ، والآراء الموروثة كلها ، ووضعها في موضع النظر والبحث ، فليس مع واحدٍ منها دليل يُثبت صدقه ، فيقول مجيبا من سأله عن أي المذاهب هو الحق : « . . . وليس مع واحدٍ منهم معجزة يترجح بها جانبه .

فجانب الالتفاتَ إلى المذاهب ، واطلب الحقَّ بطريق النظر ـ لتكون صاحبَ مذهب ، ولا تكن في صورة أعمى تقلد قائدا يرشدك إلى طريق ، وحولك ألفٌ مثل قائدك ينادون عليك بأنه أهلكك ، وأضلك عن سواء السبيل .

---

(١) عن سليمان دنيا ـ الحقيقة في نظر الغزالي : ٥٤ .

(٢) المنقذ من الضلال : ٨٩ .

الغـــزالـي وحـريـــة الفكـــر :

بكل ما تقدم من دعوة إلى العقل وتمجيده ، وبيان شرفه وعلو منزلته ، ومنزلة من يتبعونه ، إلى الدعوة إلى نبذ التقليد ، والإزراء على المقلدة والدعوة إلى العلوم العقلية ، والهجوم على من يرفض البرهانيات ، ويجحد العقليات ، بكل ذلك ، وببعض ذلك يكون الغزالي من رجال الفكر الحر ، والرأي الحر .

ولكن يبدو أن حرية الرأي ليس لها مفهوم ، عند بعضهم ، إلا في الاطلاع على آراء الخارجين والمارقين ، والأعداء والمناوئين ، والملحدين والكافرين .

وبهذا المعنى أيضا يكون الغزالي من أصحاب حرية الرأي ، هذا إن أرادوا الاطلاع عليها ودراستها ، وتقويمها ، فكل ذلك قد كان من الغزالي .

أما إن أرادوا اتباعها ، وتقليدها ، والتعبد لها ، والانبهار بها، فهذا ما رفضه الغزالي ، وعابه ، وحذر منه ، وزيفه ، وبين خطله وخطأه .

بل إن الغزالي لم يرفض من هذه الآراء ، والأفكار ، والنظريات ، ما ثبت عنده صدقه ، وصحته بالدليل والبرهان ، مما عرّضه ـ رضي الله عنه ـ للهجوم والاتهام بأنه يأخذ من علوم المضلين ، وفنون الجاحدين ، فكان نصيبه العداوة من الفريقين .

ولكنه رضي الله عنه لم يتخل عن دستوره : (اعرف الحق بالحق) ، فأثبت في كتبه ما رآه حقا ، من قضايا ، ومن مصطلحات ، وردت في كتب الفلاسفة ، ولما عابوا ذلك عليه ، كان رده :

« وهب أن هذه لم توجد إلا في كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولا في نفسه ، مؤيدًا بالبرهان ، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة فلم ينبغي أن يهجر ؟ أو ينكر ؟»[1].

---

(١) المنقذ من الضلال : ١٢٦ .

وستعلم في عاقبة أمرك ظلمَ قائدك ، فلا خلاص إلا في الاستقلال .

خذ ما تراه ، ودع شيئا سمعت به في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

ولم لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث ، لتتندب للطلب ، فناهيك به نفعا ؛ إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر ، بقي في العمى والضلال[1] .

فأي نبذٍ للتقليد وإزراء به أكثر من هذا ؟ .

ومما أثر عنه أيضا في هذا الباب قوله : « واعلم يا أخي أنك متى كنت ذاهبا إلى تعرف الحق بالرجال ، من غير أن تتكل على بصيرتك ، فقد ضل سعيك ، فإن العالم من الرجال ، إنما هو كالشمس أو كالسراج ، يعطي الضوء ، ثم انظر ببصيرتك ، فإن كنت أعمى ، فما يغني عنك السراج والشمس ، فمن عول على التقليد هلك هلاكا مطلقا »[2] .

هكذا التقليد هلاك مطلق .

وتجده يزدري المقلدة ، ويراهم كالعوام ، بل أحط منهم شأنا ، فيقول ، بعد أن وصف سلوك المقلدة ، ورفْضَهم للحق لمجرد معرفتهم أنه ليس من قول المذهب الذي هم عليه : « . . . ولست أقول هذا طبع العوام ، بل طبع أكثر المتوسمين باسم العلم ، فإنهم لم يفارقوا العوام في أصل الاعتقاد ، بل أضافوا إلى تقليد المذهب ، تقليد الدليل ، فهم في نظرهم (أي بحثهم) لا يطلبون الحق ، بل يطلبون طريق الحيلة في نصرة ما اعتقدوه حقا بالسماع والتقليد ، فإن صادفوا في نظرهم ما يؤكد اعتقادهم ، قالوا : لقد ظفرنا بالدليل ، وإن ظهر لهم ، ما يضعف مذهبهم قالوا : قد عرضت لنا شبهة »[3] .

---

(١) ميزان العمل : ٤٠٩ .
(٢) معراج السالكين (عن سليمان دنيا ـ الحقيقة في نظر الغزالي : ٥٤) .
(٣) الاقتصاد في الاعتقاد (عن سليمان دنيا ـ الحقيقة في نظر الغزالي : ٥٥) .

ثم يتابع كلامه مبينا خطأ هذا الذي يعترض عليه ، وخطر رأيه ، فيقول :

« فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقنا إلى أن نهجر كلَّ حق سبق إليه خاطرُ مبطل ، لزمنا أن نهجر كثيرا من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من القرآن وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء والصوفية : لأن صاحب كتاب (إخوان الصفا) ، أوردها في كتابه ، مستشهدا بها ومستدرجا قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله ، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحقَّ من أيدينا ، بإيداعهم إياه في كتبهم»[1].

فهو باحثٌ عن الحق ، حيث هو ، وعن العلم حيث كان ، ولو كان مع الكافرين ، وفي ثنايا أبحاثهم ، وتضاعيف كتبهم ، لا يرده عنه أنه سبق إليه خاطر المبطلين . فالحكمة ضالة المؤمن ، وهو أحق بها أنى وجدها .

ثم يتابع كلامه مؤكدا إياه بمثال بالغ ، وهو أن العسل يظل عسلا ، ولو وضع فى محجمة الحجام ، فالصواب صواب ، والحق حق ، ولو نطق به الكافرون والمبطلون .

ويضرب مثالا آخر أبلغ من ذلك ، حينما يقول النصراني : لا إله إلا الله عيسى رسول الله . فهذا قول حق ، فهل يرفضه المسلم لأنه جاء على لسان النصراني ؟؟ إن النصراني ما كفر بهذا . إنما كفر بإنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لا بالاعتراف بنبوة عيسى[2].

ويعلق أستاذنا الدكتور محمود قاسم على كلام الغزالي هذا قائلا : « وفي رأينا أن وجهة نظر الغزالي تتفق مع المنهج العلمي السليم ، وهي تتضمن ضرورة الاطلاع على آراء الآخرين ، ومحاولة الانتفاع بها ، إذا ثبت أنها مطابقة للعقل والشرع ، فهو لا يريد إذاً الحجرَ على التفكير ، ولا يهدف إلى فرض قيودٍ تقف في سبيله ، أو تدعوه إلى التقليد والجمود »[3].

---

(١) المنقذ من الضلال : ١٢٧ .
(٢) المنقذ من الضلال ١٢٥ ـ ١٢٧ بتصرف .
(٣) دراسات في الفلسفة الإسلامية : ١٤٩ .

الغـــزالي ودراســـة العلـــوم :

إن من يتتبع كلام الغزالي ، بعقلٍ واعٍ ، ومنهج علمي سليم ، لا بهوًى وتحاملٍ ، ولا يضرب كُتبَه بعضَها ببعض ، يظهر له ، إيمان الغزالي بالعقل وبالفكر ، وبالرأى الحر ، وبالمنهج العلمي الصارم ، ويراه داعيا لدراسة العلوم ، معظما لشأنها .

فهو يدعو إلى العلم ، بكل ألوانه وفروعه ، وأقسامه ، دعوةً عامة ، ثم رأينا له لمحاتٍ عن بعض العلوم ، سجلنا بعضاً منها ، ولم نُحصها إحصاء .

فهو يقول عن علم تشريح الأعضاء : « ولا يطالع التشريحَ ، وعجائبَ منافع الأعضاء ، مُطالع إلا ويحصل له هذا العلمُ الضروريُّ بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، لا سيما لبنية الإنسان »[1].

ثم يدعو إلى الطب والحساب ، والزراعة ، والهندسة ، وما لا قوام للحياة بدونها من العلوم والحرف ، ويجعلُها من فروض الكفايات .

ومما قاله في هذا المعنى ، في (ميزان العمل) تحت عنوان : (بيان شرف : العقل ، والعلم ، والتعليم) .

« .... والصناعات ثلاثةُ أقســـام :

١ ـ إما أصول ، لاقوام للعالم دونها . وهي أربعة :
الزراعة ـ والحياكة ، والبناية ، والسياسة .

٢ ـ وإما مهيأة لكل واحدة منها ، وخادمةٌ لها :
كالحدادة للزراعة ـ والحلاجة ، والغزل ، للحياكة .

---

(١) المنقذ من الضلال : ١١٠ .

٣ ـ وإما متممةٌ لكل واحدة من ذلك ، ومزينة لها :
كالطحانة والخبز : للزراعة .
والقصارة[١] والخياطة : للحياكة[٢].

* * *

ولعل أظهر ما يدل على رأي الغزالي في دراسة العلوم ، دعوتُه من يتصدى لتفسير القرآن إلى التزود بالعلوم (العقلية) المختلفة قبل العلوم الشرعية ، حتى يؤدِّي أمانة التفسير كاملة .

فإذا قال القرآن الكريم ﴿ يأيها الأنسان ما غرك بربك الكريم ، الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورةٍ ما شاء ركبك ﴾ (الانفطار : ٦ ـ ٨) فلا يفسر هذه الآية التفسير الكامل المرادَ منها ، إلا من عرف تشريحَ الأعضاء من الإنسان ظاهرا وباطنا . . . الخ

وإذا قال سبحانه : ﴿ والشمسُ والقمر بحسبان ﴾ (الرحمن : ٥) وقال : ﴿ وقدّره منازل لتعلموا عدد السنينَ والحساب ﴾ (يونس : ٥) فلا يعرف حقيقةَ الشمس ، وسيرَها ، وأبراجها ، ومنازلها ، والقمرَ ودورانه ، وخسوفَهما ، وولوج الليل في النهار ، وكيفيةَ تكور أحدهما على الآخر ، إلا من عرف هيئات تركيب السماوات ، والأرض ، وهو علم تتفرع منه علوم . . . . . .

ثم يقول الغزالي بعد أمثلةٍ كثيرةٍ شاملة : « ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن الكريم من تفاصيلَ علومٍ ، لطال الأمر ، وتشعب ، فتفكر في القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامعَ علوم الأولين والآخرين »[٣].

---

(١) تبييض المنسوجات .
(٢) ميزان العمل : ٣٢٨ وما بعدها .
(٣) عن طه عبد الباقي سرور : الغزالي : ١١٤ ـ ١١٦ .

ومن تمجيده للعلوم العقلية ما قاله في (ميزان العمل) : « وليس يخفى أن العلوم العقلية تدرَك بالعقل الذي هو أشرف القوى ، وبه يتوصل إلى جنة المأوى »[1].

الغـــزالي يتوقـــع المكتشـــفات العلمـــية :

فهو يقول[2]: « ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يُتمارى فيها ، أن في الإمكان والقوة أصنافاً من العلوم العجيبة لم تخرج بعدُ من الوجود ، وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها ، وعلوم كانت قد خرجت إلى الوجود واندرست الآن ، فلن يوجد في هذه العصور على وجه الأرض من يعرفها ، وعلوم أخرى ليس في قوة البشر أصلا إدراكُها والإحاطة بها ، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين » .

والغزالي بهذا قد تنبأ بالمعارف الإنسانية التي نشاهدها في عصرنا ولم يشاهدها هو في عصره ، والتي ستشاهدها العصور القادمة ، ولم نشاهدها نحن ، ونظريته في العلوم المندرسة يشهد بصحتها العلم الحديث ، والاكتشافات التاريخية ، فقد وُجد لدى قدماء المصريين في مقابرهم من أسرار الكيمياء وتحنيط الأجساد والحبوب ، وأسرار البناء والفلك ما لم تهتد إليه المعارف الحاضرة » .

وينقل الأستاذ طه عبد الباقي سرور ، عن أكثر من واحد من المؤرخين ، أنهم « اطلعوا على كتابٍ للغزالي ، محفوظٍ في برلين ، بعنوان (رموز القرآن) ، وأنهم قالوا : « إن الغزالي قد أشار في هذا الكتاب إلى الكهرباء ، والديناميت ، والهواء الخفيف » .

ثم يعقب : وليس في استطاعتنا أن نؤكد صحة هذه الأشياء ، فدليلها مفقود ، وآيتها في بطون صفحاتٍ لا تزال محجوبة عن الشمس »[3].

---

(١) ميزان العمل : ٣٣٠ .
(٢) عن طه عبد الباقي سرور : ١١٨ .
(٣) الغزالي : ١١٩ .

الرياضـــيات في نظـــر الغـــزالي :

كانت الرياضيات فرعا من فروع الفلسفة ، وعلما من علومها ، على عهد الغزالي ، فلما عُلم أن الغزالي هاجم الفلسفة ، وقضى عليها ، وكشف عوارها ، وأبان تهافتها ظن من يأخذ العلم عن بُعد[1] أن الغزالي عدو للفكر ، وحرية الفكر ، وبالتالي عدو للعلوم التي تقوم على الفكر والنظر المستقيم ، وراح الباحثون عن (تكنولوجيا) عصرنا يُحمّلون الغزالي مسئولية تخلفهم وعجزهم .

لقد قسم الغزالي علوم الفلسفة إلى ستة أقسام ، وعدّ أولها الرياضيات فماذا قال عن الرياضيات ؟

« أما الرياضة : فتتعلق بعلم الحساب ، والهندسة ، وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفيا وإثباتا ، بل هي أمور برهانية ، لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ، ومعرفتها»[2].

هكذا . الرياضة « أمور برهانية ، لا سبيل إلى مجاحدتها » ينفي أشد النفى ، أن يجحد أحدٌ براهينَ الرياضيات ، وأن يردّ قوانينها ، ويرفض نتائجها . هل هناك تقرير وتأكيد لقيمة الرياضيات أكبر من هذا ؟ وهل هناك وصف لحقيقة الرياضيات أصدق من هذا ؟ .

ولكن الغزالي ، المربي ، المعلّم ، المصلح الاجتماعي ، الفيلسوف ، لا تغره ظواهر الأمور ، فيلتفت إلى خطر آخر ينشأ عن دراسة الرياضيات ليس من الرياضيات في ذاتها ، ولكنه من الآثار الجانبية التي (قد) تنشأ عن دراسة الرياضيات ، وهذا ما يمكن أن يسمى (بالخبرة المصاحبة) في اصطلاح رجال التربية في عصرنا .

---

(١) أخذنا هذا التعبير عن إمام الحرمين شيخ الغزالي ، وهو يعيب به المتعجلين في أحكامهم غير المتثبتين في آرائهم .

(٢) المنقذ من الضلال : ١٣ . بتحقيق الشيخ عبد الحليم محمود . دار الكتب الحديثة بالقاهرة (بدون تاريخ) .

نعم تنبه الغزالي إلى (أعراض جانبية) لدراسة الرياضيات ، ونبه لها ، وحذر منها ، وذلك قوله : « وقد تولدت منها آفتان :

الأولى : أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها فيحسُن بسبب ذلك اعتقادُه في الفلاسفة ، فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح ، وفي وثاقة البرهان ، كهذا العلم ، ثم يكون قد سمع من كفرهم ، وتعطيلهم ، وتهاونهم بالشرع ، ما تداولته الألسنة ، فيكفرُ بالتقليد المحض ، ويقول : لو كان الدين حقا ، لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم ، فإذا عرف بالتسامع ، كفرهم وجحدهم ، فيستدل على أن الحق : هو الجحد والإنكار للدين ، وكم رأيتُ من يَضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه .

وإذا قيل له : الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقا في كل صناعة ، فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه ، والكلام ، حاذقا في الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلا بالنحو ، بل لكل صناعة أهلٌ ، بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق . وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم في غيرها ، فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني ، وفي الإلهيات تخميني ، لا يعرف ذلك إلا من جربه ، وخاض فيه ، فهذا إذا قُرر على هذا الذي انخدع بالتقليد لم يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى وشقوة البطالة ، وحب التكايس على أن يُصرّ على تحسين الظن بهم في العلوم كلها »[1] .

هكذا يدرك المربي الخبير ، هذه الآفة الخفية ، ومدى خطرها ، وهي آفة نفسية كما ترى ، إذ قد يُخدع من يتعلم الرياضيات ويراها لا تخطىء ، فيظن أن باقي علومهم لا تخطىء ، فيصدقهم في الإلهيات قياسيا لها على الرياضيات ، فما دام هؤلاء يقولون حقا لا يتخلف في جانب الرياضيات ، فلماذا يتخلف الحق ، ويجوز عليهم الخطأ في جانب الإلهيات ، وهو مزلق كما ترى عظيم ، وإذا أريد التنبيه إليه بأن من حذَق صناعة ، ومهر فيها ، ليس بالضرورة أن يكون حاذقا في كل صناعة ، فهذا التنبيه على وضوحه ، لا ينفع « الذي انخدع بالتقليد ، ولا يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى وشقوة البطالة ، وحب التكايس على أن يُصرّ على تحسين الظن بهم في العلوم كلها » .

---

(١) المنقذ من الضلال (بتحقيق الشيخ عبد الحليم محمود) : ١١٤ .

وواضح هنا أنه يرى أن هذه الآفة ليست بلازمةٍ للرياضيات ، وليس كـل دارس للرياضيات معرضا لها ، وإنما الضعاف المقلدة فقط ، وليس كل المقلدة ، بل من يغلبه الهوى ، ومن يُحب التعالم ، أي الأحمق المتكايس .

ولا يتردد الغزالي في الحكم بمنع تدريس الرياضيات من أجل هذه الآفة ، فيقول :

« فهذه آفة عظيمة ، لأجلها يجب زجرُ كلِّ من يخوض في تلك العلوم ، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادىء علومهم ، يسري إليه شرُّهم ، وشؤمهم ، فقلَّ من يخوض فيها ، إلا وينخلع من الدين ، وينحلّ عن رأسه لجامُ التقوى»[1] .

وأعلم أن هناك من سيصيح : وجدتُها ، ها قد قالها الغزالي بنفسه : « لأجل هذه الآفة يجب زجر كلِّ من يخوض في علوم الرياضيات » .

وليس حجة الإسلام ممن تزعه هذه التهاويل ، أو يلتفت إلى هذه المغالطات ، فهو قد عنى صنفا معينا من الناس ، عندهم الاستعداد للاستهواء ، فيهم ضعفُ التقليد ، ويغلبهم الهوى ، ويُعميهم حبّ التكايس .

ولعمري إن هذا ماثلٌ للعِيان أمامنا ، فيمن يتعلمون علمَ الغرب في أي فن من الفنون ، ولتكن الرياضيات مثلا ، فيعود بعضٌ منهم إلينا وقد انسلخوا من جلودهم وخرجوا من إهابهم ، انبهارا بعلوم القوم وفنونهم ، فيأخذون عنهم ما عندهم ، من هرطقة وتجديف ، ومن عادات وتقاليد ، بل وذنوب وآثام ، يعرفون بالقطع حرمتها في ديننـا ، ولكنهم يستحلونها ، ولسان حالهم يقول : لو كان هذا خطأ أو ضررا ، ما ارتكبه هؤلاء المتقدمون الذين سادوا العالم ، وبسطوا عليه نفوذهم وحضارتهم .

يقولون هذا بلسان الحال أحيانا ، وبلسان المقال حينا ، فكم من بعضهم حينما يخاطب في تحليل حلال أو تحريم حرام . يقول : كفى تخلفا . العالم صعد إلى القمر ، وأنتم قاعدون تقولون : حلال وحرام !!!

---

(١) المصدر السابق نفسه .

ومعلوم أن منهم من يعاقر الخمر (وهي من المعلوم حرمتها بالضرورة) قائلا : لو كانت حراما ، ولو كانت ضارة ، لاهتدى إلى ذلك هؤلاء ، أصحاب العقول الكبيرة الذين اخترعوا كذا وكذا .

هذا واقع مشاهد . وكأن الغزالي يتكلم عنه .

ولكن ليس معنى ذلك أن نزجر من يتعلم الرياضيات بإطلاق ، لا نقول نحن ذلك ، ولم يقله الغزالي ، وإنما مراده رضي الله عنه أن نختار لهذه العلوم أصحاب القدرة العقلية ، والسلامة النفسية ، ومن المعلوم أن الدول الواعية التي تحافظ على ذاتيتها ، وشخصيتها ، وفلسفتها ، تحدد مستوًى معينا من النضج العقلي ، والنمو النفسي ، والعمر الزمني لأبنائها ، عند الابتعاث إلى دول أجنبية للدراسة .

إذا علمنا ذلك ، فلا محل للاعتراض الذي اعترض به أستاذنا الجليل الدكتور سليمان دنيا رحمه الله ، وذلك قوله : « أما الأمر الذي لا نستطيع أن نوافق الغزالي عليه ، فهو قوله : (فهذه آفة عظيمة يجب لأجلها زجرُ كل من يخوض في تلك العلوم) . فهذه دعوة إلى الجهل ، إذ لا يسوغ لنا أن نمنع من علوم الرياضة كلَّ الناس ، إذ ليس كلُّ الناس عرضة للوقوع في أخطار هذه الآفة»أ.هـ[1].

ومعاذ الله أن يكون حجةُ الإسلام « داعية إلى الجهل » وهو الذي أفنى عمره في سبيل الحقيقة ، وفي كتاب «ميزان العمل» نفسِه الذي كتب الدكتور سليمان دنيا في مقدمته هذا الكلام ، نجد الغزالي يتحدث عن شرف العقل ، وشرف العلم والتعليم ، وعن الصناعات . (انظر الصفحات ٣٢٨ وما بعدها) .

وكلام أستاذنا الدكتور سليمان دنيا في أنه ليس كل الناس معرضين للوقوع في أخطار هذه الآفة ، هو بعينه كلام الغزالي ، ومع أن الغزالي استخدم لفظ (كل) فقال : « يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم » فواضح من سياق كلامه وسباقه أنه لا يقصد (كل) بمعناها

---

(١) من مقدمته لكتاب (ميزان العمل للغزالي : ٦٨) ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤م .

المطلق ، وإنما (كل) من يكون عرضة للوقوع في أخطار هذه الآفة ، ومن البدائه أن كلام الإنسان يُفهم ويفسَّر في ضوء سياقه وسباقه ، ومع كل كلامه في ذات الموضوع .

وكذلك أيضا لا محل للاعتذار الذي قدمه شيخُنا الإمام الدكتور عبد الحليم محمود ، في تعليقه على « المنقذ من الضلال » ، إذ قال : « ولعل وضع الرياضيات في أيام الإمام الغزالي كان على غير وضعها الآن ، وما من شك في أن الإمامَ الغزالي ـ وهو واسع الأفق مستنير ـ لو عاش بيننا الآن ، لما قال ذلك »أ. هـ[1].

بل يجب علينا نحن أن نقوله الآن ، بأوضحَ مما قاله الغزالي ، ولو لم يقله الغزالي ، فأوضاعنا الآن في حاجة إلى ألف غزالي .

وقد سررنا بتوفيق الله حين وقعنا على موافقةِ كلامِنا هذا لما قاله العلامة الداعية الشيخ أبو الحسن الندْوى ، مد الله في عمره ، إذ علق على كلام الغزالي هذا ، قائلا : « وكأنه (أي الغزلي) يصور ـ وهو يذكر تأثير العلوم الرياضية ، ورد فعلها في كثير من ضعاف العقول ، والمتكايسين في عصره ـ عقليةَ النشء الجديد ، وكثير من المتعلمين في القرن العشرين ، الذين خضعوا لبراعة الأوربيين في العلوم الطبِّيعية والاُختراعات ، ورأوا ما هم عليه من إلحاد وزندقة وتفسخ خلقي ، فظنوا أنه الطريق الأقوم ، وقلدوهم فيه »[2].

ولا يكتفي الغزالي بهذه الآفة وحدها التي تعرض من دراسة الرياضيات وإنما يرى أن وراءها آفةً أخرى ، ولكنها ليست من دراسة الرياضيات ، وإنما تولدت عن صدق النظريات الرياضية ، وسلامة براهينها .

« الآفة الثانية نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينبغي أن يُنصر بإنكار كل علم منسوب إليهم : فأنكر جميعَ علومهم ، وادعى جهلَهم فيها ، حتى أنكر قولَهم في الكسوف ، والخُسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمعَ من

---

(١) المنقذ من الضلال : ١١٤ هامش ١ . (مرجع سابق) .

(٢) أبو الحسن الندوى : رجال الفكر والدعوة في الاسلام : ١٩٠ ـ دار القلم بالكويت ـ ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م .

عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك في برهانه ، لكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل ، وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حبا ، وللإسلام بغضا .

ولقد عظمت على الدين جنايةٌ من ظن أن الإسلام يُنصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرضٌ لهذه العلوم بالنفي ، والإثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية . وقوله عليه السلام :

(إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى : لا ينخسفان لموت أحد ، ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك ، فافزعوا إلى ذكر الله تعالى ، وإلى الصلاة)[1] .

ليس في هذا إنكار علم الحساب ، المعروف بمسير الشمس ، والقمر ، واجتماعهما ، أو مقابلتهما على وجه مخصوص .

أما قوله ، عليه السلام : « لكن الله إذا تجلى لشيء خضع له » فليس توجد هذه الزيادة في الصحاح أصلا[2] .

وواضح هنا أن الخطر أيضاً ليس من جانب الرياضيات في ذاتها ، بل من الجهلة الذين ينصرون الإسلام بجهلهم ، فيعيبونه وهم يظنون أنهم يدفعون عنه ، كالدّبة التي قتلت صاحبها في القصة الرمزية المشهورة .

ومما يؤسف له أن هذه الآفة موجودة في عالمنا الآن ، في صورة رفضٍ للحقائق العلمية ، بل والإنجازات الحضارية ، فقد سمعنا عمن ينكر كروية الأرض باسم الإسلام ، وينكر وصولَ الإنسان إلى القمر باسم الدين . وينكر عمل المسلمين بالصناعات والبحث العلمي ، زاعما أن الله سخر لنا الكفار في بلاد الغرب ، ليخترعوا لنا وسائل الصناعة وآلات الزراعة ومنتجات الحضارة: من دواء للأمراض ،وغذاء للأجسام ،وسلاحٍ لندافع به عن ديار الإسلام ؛ كي نتفرغ نحن للعبادة . كذا يقال . فأين الغزالي لهؤلاء .

---

(١) صحيح رواه مسلم من حديث جابر : ٣/٣١ ـ ٣٢ ، وأبو عوانة : ٢/٣٧١ ، ٣٧٢ ، وأبو داود : ١١٧٨ ، والبيهقي : ٣/٣٢٥ ـ ٣٢٦ ، وأحمد : ٣/٣١٧ ـ ٣١٨ (إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل . محمد ناصر الألباني : ٣/١٢٦ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ١٣٩٩هـ وراجع هناك لترى صحة كلام الغزالي في أن هذه الزيادة ، لا وجود لها في الصحاح .

(٢) المنقذ من الضلال : ١١٥ .

المصـــادر والمـراجـــع

أولا : مؤلفـــات الإمـــام الغـــزالي :

١ ـ إحياء علوم الدين .
المكتبةالتجارية الكبرى ـ مصر (بدون تاريخ) .
٢ ـ الاقتصاد في الاعتقاد .
مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي ـ مصر (١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٦م) .
٣ ـ تهافت الفلاسفة (بتحقيق الدكتور / سليمان دنيا ـ رحمه الله) .
دار المعارف بمصر ـ بدون تاريخ .
٤ ـ فضائح الباطنية (بتحقيق الدكتور / عبد الرحمن بدوي) .
المتحدة للتوزيع ـ بيروت (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م) .
٥ ـ القسطاس المستقيم (بتحقيق الأب فيكتور شلحت اليسوعي) .
المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ـ ١٩٥٩م .
٦ ـ المستصفى . المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٢٢هـ .
٧ ـ المشكاة (ضمن مجموعة رسائل للغزالي بعنوان : القصور العوالي) .
مكتبة الجندي ـ بالحسين ـ بمصر (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م) .
٨ ـ معيار العلم . دار الأندلس ـ بيروت ١٩٦٤م .
٩ ـ المنقذ من الضلال (بتحقيق الدكتور / عبد الحليم محمود) .
دار الكتب الحديثة ـ بعابدين بالقاهرة ـ (بدون تاريخ) .
١٠ ـ ميزان العمل (بتحقيق الدكتور / سليمان دنيا ـ رحمه الله) .
دار المعارف ـ بمصر ١٩٦٤م .

ثانيـــاً : مصـــادر ومـراجـــع :

* ابن رشد : القاضي أبو الوليد محمد بن رشد (الحفيد) .
١١ ـ تهافت التهافت . بتحقيق وتقديم الدكتور / سليمان دنيا .
دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٠م .

* القاضي أبو بكر بن العربي (بتحقيق د . عمار طالبي) .

١٢ ـ آراء أبي بكر بن العربي الكلامية (العواصم من القواصم) .
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ ١٩٨١م) .

* أبو الحسن الندري ـ العلامة الداعية ـ فخر القارة الهندية .
١٣ ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام .
دار القلم ـ الكويت (١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م) .

* د . أبو الوفا الغنيمي التفتازاني .
١٤ ـ مدخل إلى التصوف الإسلامي .
دار الثقافة ـ بالفجالة بالقاهرة ١٩٧٩م .

* د . أنطونيوس كرم .
١٥ ـ العرب أمام تحديات التكنولوجيا .
سلسلة شهرية تصدر عن المجلس الوطني للثقافة بالكويت رقم ٥٩ (محرم ـ صفر ١٤٠٣ ـ نوفمبر ١٩٨٢) .

* الإسنوي : جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن .
١٦ ـ طبقات الشافعية (بتحقيق الدكتور / عبد الله الجبوري) .
ديوان الأوقاف بالعراق ـ بغداد ـ ١٣٩٩هـ .

* الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله .
١٧ ـ رسالة المسترشدين (بتحقيق الشيخ الجليل / عبدالفتاح أبو غدة) .
مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب ـ (١٩٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م) .

* د . حسام الألوسي .
١٨ ـ دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي .
المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت (١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م) .

* د . حسن أحمد محمود ، وآخر .
١٩ ـ العالم الإسلامي في العصر العباسي .
دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٨٠م .

* رينولد . أ . نيكولسون .

٢٠ ـ في التصوف الإسلامي وتاريخه (ترجمة أبو العلا عفيفي) .
لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م).

* الدكتور / سليمان دنيا (رحمه الله) .
٢١ ـ التفكير الفلسفي الإسلامي .
مكتبة الخانجي ـ بمصر (١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م) . توزيع مكتبة الرشاد بالدار البيضاء ـ المغرب .
٢٢ ـ الحقيقة في نظر الغزالي .
دار المعارف بمصر ١٩٧١م .

* طه عبد الباقي سرور .
٢٣ ـ الغزالي .
سلسلة (اقرأ) رقم ٣١ . دار المعارف بمصر ـ ديسمبر ١٩٥٥م .

* د . عبد الرحمن بدوى .
٢٤ ـ مؤلفات الغزالي .
وكالة المطبوعات ـ بالكويت ١٩٧٧م .

* د . عبد الحليم محمود . الأستاذ الأكبر .
٢٥ ـ التفكير الفلسفي في الإسلام .
مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ـ ١٩٦٤م .

* د . عبد العظيم الديب .
٢٦ ـ الغزالي وأصول الفقه
(بحث منشور بالكتاب التذكاري) بعنوان : الإمام الغزالي ـ الذكرى المئوية التاسعة لوفاته) . جامعة قطر ـ الدوحة (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) .
٢٧ ـ إمام الحرمين (حياته وعصره ـ آثاره وفكره) .
دار القلم ـ الكويت ـ (١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م) .

* د . عبد الفتاح عبد الله بركة .
٢٨ ـ الإمام الغزالي وتوجهه الاجتماعي .

(بحث ضمن الكتاب التذكاري بعنوان : الإمام الغزالي ـ الذكرى المئوية التاسعة لوفاته) . جامعة قطر ـ الدوحة (١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م) .
٢٩ ـ في التصوف والأخلاق .
دار القلم ـ الكويت (١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م) .

* إمام الحرمين الجويني عبد الملك بن عبد الله بن يوسف .
٣٠ ـ الغياثي (بتحقيق د . عبد العظيم الديب) .
مكتبة وهبة ـ ودار التراث ـ القاهرة ـ ١٤٠١هـ .

* د . عبده الشمالي .
٣١ ـ دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية .
دار صادر ـ بيروت (١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م) .

* السبكي : تاج الدين عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي .
٣٢ ـ طبقات الشافعية الكبرى (بتحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو) .
مطبعة عيسى الحلبي وشركاه ـ القاهرة (١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧ م) .

* د . عماد الدين خليل .
٣٣ ـ حول إعادة تشكيل العقل المسلم .
سلسلة كتاب الأمة رقم ٤ (سلسلة فصلية تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية بدولة قطر) . الدوحة ـ رمضان ١٤٠٣هـ .

* د . محمد علي أبو ريان .
٣٤ ـ تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام .
دار المعرفة الجامعية ـ بمصر ـ الإسكندرية ـ ١٩٨٣م .

* د . محمود قاسم .
٣٥ ـ الإمام عبد الحميد بن باديس .
دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٧ م .
٣٦ ـ دراسات في الفلسفية الإسلامية .
دار المعارف ـ بمصر ١٩٦٧م .

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حَمَّادٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رَسُولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم : إِنَّ اللّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حتّى لاَ يَفْخَرَ أَحَد عَلَى أَحَدٍ وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ . . رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .